- ٣ -
الـــوحى

● إمكانية الوحى ووقوعه :

ازدهرت الحياة العلمية وبددت أشعتها كل ريبة كانت تساور الناس إلى عهد قريب فيما وراء المادة من روح ، وآمن العلم المادى الذى وضع جل الكائنات تحت التجربة والاختبار بأن هناك عالمًا غيبيا وراء هذا العالَم المشاهَد ، وأن عالَم الغيب أدق وأعمق من عالَم الشهادة ، وأكثر المخترعات الحديثة التى أخذت بألباب الناس تحجب وراءها هذا السر الخفى الذى عجز العلم عن إدراك كنهه وإن لاحظ آثاره ومظاهره ، وقرَّب هذا بُعْد الشقة بين التنكر للأديان والإيمان بها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ العِلْمِ إِلاَ قَلِيلاً ﴾ (٢) . .

فالبحوث النفسية الروحية لها فى مضمار العلم الآن مكانتها ، ويساندها ويُقرِّبها إلى الأفهام تفاوت الناس فى مداركهم وميولهم وغرائزهم ، فمن العقول العبقرى الفذ الذى يبتكر كل جديد ، ومنها الغبى الذى يستعصى عليه إدراك بديهى الأمور ، وبين المنزلتين درجات . والنفوس كذلك ، منها الصافى المشرق ، والخبيث المعتم .

وجسم الإنسان يطوى وراءه روحاً هى سر حياته ، وإذا كان الجسم تبلى ذرَّاته وتفنى أنسجته وخلاياه ما لم يتناول قسطه من الغذاء ، فجدير بالروح أن يكون لها غذاء يمدها بالطاقة الروحية كى تحتفظ بمقوماتها وقيمها .

وليس ببعيد على الله تعالى أن يختار من عباده نفوسًا لها من نقاء الجوهر وسلامة الفطرة ما يعدها للفيض الإلهى ، والوحى السماوى ، والاتصال بالملأ الأعلى ، ليُلقى إليها برسالاته التى تسد حاجة البشر فى رقى وجدانه ، وسمو أخلاقه ، واستقامة نظامه ، وهؤلاء هم رسله وأنبياؤه .

ولا غرابة فى أن يكون هذا الاتصال بالوحى السماوى .

---

(١) فصلت : ٥٣ (٢) الإسراء : ٨٥

فالناس اليوم يشاهدون التنويم المغناطيسى ، وهو يوضح لهم أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها يُحدث أثرًا يُقَرِّب إلى الأفهام ظاهرة الوحى - حيث يستطيع الرجل القوى الإرادة أن يتسلط بإرادته على مَن هو أضعف منه فينام نومًا عميقًا، ويكون رهن إشارته ، ويُلَقنه ما يريد فيجرى على قلبه ولسانه ، وإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟ (١) .

ويسمع الناس الأحاديث المسجلة التى تحملها اليوم موجات الأثير ، عابرة الوهاد والنجاد ، والسهول والبحار ، دون رؤية ذويها ، بل بعد وفاتهم .

وأصبح الرجلان يتخاطبان فى الهاتف ، أحدهما فى أقصى المشرق ، والآخر فى أقصى المغرب ، وقد يتراءيان مع هذا التخاطب ، ولا يسمع الجالسون بجانبهما شيئاً سوى أزيز كدوى النحل الذى فى صفة الوحى .

ومَن منا ليس له حديث نفس فى يقظته أو منامه يدور فى خلده دون أن يرى متكلماً أمامه ؟

هذه وغيرها أمثلة تفسر لعقولنا حقيقة الوحى .

وقد شاهد الوحى معاصروه ، ونُقِلَ بالتواتر المستوفى لشروطه بما يفيد العلم القطعى إلى الأجيال اللاحقة ، ولمست الإنسانية أثره فى حضارة أُمته ، وقوة أتباعه، وعزتهم ما استمسكوا به وانهيار كيانهم وخذلانهم ما فرَّطوا فى جنبه ، مما لا يدع مجالاً للشك فى إمكان الوحى وثبوته ، وضرورة العودة إلى الاهتداء به إطفاء للظمأ النفسى بمُثله العليا ، وقيمه الروحية .

ولم يكن رسولنا ﷺ أول رسول أُوحِىَ إليه ، بل أوحى الله تعالى إلى الرسل قبله بمثل ما أوحى إليه : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ

(١) انظر « النبأ العظيم » (ص٧٥) .

وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (١) .

فليس هناك فى نزول الوحى على محمد ﷺ ما يدعو إلى العجب ، ولذا أنكر الله على العقلاء هذا فى قوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢) .

* * *

معنى الوحى

يقال : وحيت إليه وأوحيت : إذا كلَّمته بما تخفيه عن غيره ، والوحى : الإشارة السريعة ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد ، وبإشارة ببعض الجوارح .

والوحى مصدر : ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين ، هما : الخفاء ، والسرعة ، ولذا قيل فى معناه : الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجَّه إليه بحيث يخفى على غيره ، وهذا معنى المصدر ، ويُطلق ويُراد به الموحى ، أى بمعنى اسم المفعول ، والوحى بمعناه اللُّغوى يتناول :

١ - الإلهام الفطرى للإنسان ، كالوحى إلى أُم موسى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (٣) .

٢ - والإلهام الغريزى للحيوان ، كالوحى إلى النحل ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٤) .

٣ - والإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء ، كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾(٥) .

---

(١) النساء : ١٦٣ -١٦٤ (٢) يونس : ٢ (٣) القصص : ٧

(٤) النحل : ٦٨ (٥) مريم : ١١

٤ - ووسوسة الشيطان وتزيينه الشر فى نفس الإنسان : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ (١) ، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (٢) . .

٥ - وما يُلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٣) . .

ولغة القرآن الفاشية : « أوحى » بالألف - ولم يستعمل مصدرها - وإنما جاء فيه مصدر الثلاثى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (٤) . .

ووحى الله إلى أنبيائه قد عرَّفوه شرعًا بأنه : كلام الله تعالى المُنَزَّل على نبى من أنبيائه . وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أى الموحى .

والوحى بالمعنى المصدرى اصطلاحًا : هو إعلام الله تعالى مَن يصطفيه من عباده ما أراد من هداية بطريقة خفية سريعة .

وعرَّفه الأستاذ محمد عبده فى رسالة التوحيد بأنه :

« عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قِبَل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ، ويُفَرَّق بينه وبين الإلهام ، بأن الإلهام : وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يُطلب على غير شعور منها من أين أتى ؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » (٥) .

وهو تعريف للوحى بالمعنى المصدرى ، وبدايته وإن كانت توهم شبهه بحديث النفس أو الكشف ، إلا أن الفرق بينه وبين الإلهام الذى جاء فى عجز التعريف ينفى هذا .

* * *

(١) الأنعام : ١٢١ (٢) الأنعام : ١١٢

(٣) الأنفال : ١٢ (٤) النجم : ٤

(٥) انظر كتاب « الوحى المحمدى » للشيخ محمد رشيد رضا (ص٤٤) .

كيفية وحى الله إلى ملائكته

١ - جاء فى القرآن الكريم ما ينص على كلام الله لملائكته : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾(١).

وعلى إيحائه إليهم : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) .

وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره : ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ (٣) . ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ (٤) . .

وهذه النصوص متآزرة تدل على أن الله يُكَلِّم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه.

ويؤيد هذا ما جاء فى الحديث عن النَّواس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى ، أخذت السموات منه رجفة - أو قال : رعدة - شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرُّوا لله سُجَّدًا ، فيكون أول مَن يرفع رأسه جبريل ، فيُكَلِّمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : « قال الحق وهو العلى الكبير » فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل » (٥) .

فهذا الحديث يبين أن كيفية الوحى تكلم من الله ، وسماع من الملائكة ، وهول شديد لأثره ، وإذا كان ظاهره - فى مرور جبريل وانتهائه بالوحى - يدل على أن ذلك خاص بالقرآن فإن صدره يبين كيفية عامة ، وأصله فى الصحيح : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان» .

---

(١) البقرة : ٣٠ (٢) الأنفال : ١٢ (٣) الذاريات : ٤

(٤) النازعات : ٥ (٥) أخرجه الطبرانى .

٢ - وثبت أن القرآن الكريم كُتبَ فى اللَّوح المحفوظ لقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (١) .

كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا فى ليلة القدر من شهر رمضان : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ (٣) ، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ (٤) . .

وفى السُّنَّة ما يوضح هذا النزول ، ويدل على أنه غير النزول الذى كان على قلب رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس موقوفاً : « أُنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أُنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثم قرأ : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (٥) ، ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ (٦) ، (٧) ، وفى رواية : « فُصِلَ القرآن من الذكر فوُضِعَ فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ » (٨) .

ولذلك ذهب العلماء فى كيفية وحى الله إلى جبريل بالقرآن إلى المذاهب الآتية :

(أ) أن جبريل تلقفه سماعًا من الله بلفظه المخصوص .

(ب) أن جبريل حفظه من اللَّوح المحفوظ .

(ج) أن جبريل ألقى إليه المعنى - والألفاظ لجبريل ، أو لمحمد ﷺ .

والرأى الأول هو الصواب ، وهو ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة ، ويؤيده حديث النوَّاس بن سمعان السابق .

ونسبة القرآن إلى الله فى أكثر من آية : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (٩) .

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ﴾ (١٠) .

---

(١) البروج : ٢١ - ٢٢ (٢) القدر : ١ (٣) الدخان : ٣

(٤) البقرة : ١٨٥ . (٥) الفرقان : ٣٣ (٦) الإسراء : ١٠٦

(٧) أخرجه الحاكم والبيهقى والنسائى . (٨) أخرجه الحاكم وابن أبى شيبة .

(٩) النمل : ٦ (١٠) التوبة : ٦

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْت بِقُرْآن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾(١) .

فالقرآن الكريم كلام الله بألفاظه لا كلام جبريل أو محمد .

أما الرأى الثانى فلا اعتبار له ، إذ أن ثبوت القرآن فى اللَّوح المحفوظ كثبوت سائر المغيبات التى لا يخرج القرآن عن أن يكون من جملتها .

والرأى الثالث أنسب بالسُّنَّة لأنها وحى من الله أُوحى إلى جبريل ثم إلى محمد ﷺ بالمعنى ، فعبَّر عنه رسول الله بعبارته : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (٢) . . ولذا جازت رواية السُّنَّة بالمعنى لعارف بما لا يحيل المعانى دون القرآن . .

ويُجاب على مَن قال : إنه كلام جبريل ، بأن هذا قول فاسد لوجوه :

أحدها : أن المسلمين أجمعين إذا تلوا آية قالوا : قال الله تعالى ، ولو كان هذا قول جبريل لقالوا : قال جبريل .

الثانى : أن هذا الذى بين دفتى المصحف بإجماع المسلمين هو كتاب الله ، وعلى قولهم فإنه يكون كتاب جبريل .

والثالث : أن الله تعالى قال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ (٣) ، وعلى قولهم ، ما نزَّله من ربك ، إنما نزَّله من كلام نفسه .

الرابع : أن الله تعالى قال : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ﴾ (٥) . . وعلى قولهم لا يكون هذا صحيحًا ، وإنما يكون المسموع كلام جبريل .

ويُجاب على مَن قال : إنه كلام محمد بأن هذا باطل لتلك الوجوه الآنفة الذكر

---

(١) يونس : ١٥ (٢) النجم : ٣ - ٤ (٣) النحل : ١٠٢
(٤) التوبة : ٦ (٥) البقرة : ٧٥

كلها ، ومن وجه آخر ، فإنهم وافقوا الوليد بن المغيرة فى قوله : ﴿ إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ (١) . . فدخلوا معه فى الوعيد بقوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ (٢) .

ويرد عليهم من الجواب ما أجاب الله تعالى به المشركين بقوله سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ، بَلْ لا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (٣) .

وسبق أن ذكرنا الفرق بين القرآن والحديث القدسى والحديث النبوى .

فمن خصائص القرآن :

١ - أنه مُعْجِز . ٢ - قطعى الثبوت . ٣ - يُتعَبد بتلاوته .

٤ - ويجب أداؤه بلفظه ، والحديث القدسى - على القول بنزول لفظه - ليس كذلك .

والحديث النبوى قسمان ، الأول : ما اجتهد فيه الرسول ﷺ ، وهذا ليس وحيا، ويكون إقرار الوحى له بسكوته إذا كان صوابًا .

والثانى : ما أُوحِىَ إليه بمعناه ، واللَّفظ لرسول الله ، ولذا يجوز روايته بالمعنى ، والحديث القدسى - على القول الراجح بنزول معناه دون لفظه - يكون من هذا القسم ونسبته إلى الله فى الرواية لورود النص الشرعى على ذلك دون الأحاديث النبوية .

* * *

كيفية وحى الله إلى رسله

يوحى الله إلى رسله بواسطة وبغير واسطة .

فالأولى : بواسطة جبريل مَلَك الوحى وسيأتى بيانه .

والثانى : هو الذى لا واسطة فيه .

(أ) منه الرؤيا الصالحة فى المنام : فعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « أول ما بُدِئَ به ﷺ الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل

---

(١) المدثر : ٢٥ (٢) المدثر : ٢٦ (٣) الطور : ٣٣ - ٣٤

فلق الصبح »[1] . وكان ذلك تهيئة لرسول الله ﷺ حتى ينزل عليه الوحى يقظة ، وليس فى القرآن شىء من هذا النوع لأنه نزل جميعه يقظة ، خلافاً لمن ادّعى نزول سورة « الكوثر » مناماً للحديث الوارد فيها ، ففى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه : « بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا فى المسجد إذ أغفى إغفاءة ، ثم رفع رأسه مبتسمًا ، فقلت : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : « نزلت علىّ آنفًا سورة ، فقرأ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾[2] . . فلعل الإغفاءَة هذه هى الحالة التى كانت تعتريه عند الوحى .

ومما يدل على أن الرؤيا الصالحة للأنبياء فى المنام وحىٌ يجب اتباعه ما جاء فى قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل[3] : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ، فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[4] . . ولو لم تكن هذه الرؤيا وحياً يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا أن مَنَّ الله عليه بالفداء .

---

(١) متفق عليه .

(٢) سورة الكوثر .

(٣) هذا هو الصواب ، خلافًا لمن ذهب إلى أنه إسحاق ، فإن البشارة كانت أولاً بإسماعيل قبل إسحاق ، وإسماعيل هو الذى نشأ فى الجزيرة العربية حيث كانت قصة الذبح ، وهو الحرى بأن يوصف بالحلم ، وقد ذهب اليهود إلى أنه « إسحاق » حقداً وحسداً ، لأنه أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب ، والقرآن يرده لأنه لما ذكر البشارة بغلام حليم ذكر أنه الذبيح ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الصافات : ١١٢) .

(٤) الصافات : ١٠١ - ١٢٢

الرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول ، فهى باقية للمؤمنين ، وإن لم تكن وحيا، قال عليه الصلاة والسلام : « انقطع الوحى وبقيت المبشرات ، رؤيا المؤمن»(١) .

والرؤيا الصالحة فى المنام للأنبياء هى القسم الأول من أقسام التكليم الإلهى المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِى حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

(ب) ومنه الكلام الإلهى من وراء حجاب بدون واسطة يقظة ، وهو ثابت لموسى عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (٤) .

كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج .

وهذا النوع هو القسم الثانى المذكور فى الآية : ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ وليس فى القرآن شىء منه كذلك .

* * *

كيفية وحى المَلَك إلى الرسول

وحى الله إلى أنبيائه إما أن يكون بغير واسطة ، وهو ما ذكرناه آنفًا ، وكان منه الرؤيا الصالحة فى المنام ، والكلام الإلَهى من وراء حجاب يقظة - وإما أن يكون بواسطة مَلَك الوحى وهو الذى يعنينا فى هذا الموضوع لأن القرآن الكريم نزل به .

ولا تخلو كيفية وحى المَلَك إلى الرسول من إحدى حالتين :

الحالة الأولى : وهى أشد على الرسول - أن يأتيه مثل صلصلة الجرس ، والصوت القوى يثير عوامل الانتباه فتُهَيأ النفس بكل قواها لقبول أثره ، فإذا نزل الوحى بهذه الصورة على الرسول ﷺ نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكية

---

(١) أصل الحديث فى الصحيحين وغيرهما ، ولفظ البخارى : « لم يبق من النبوَّة إلا المبشرات - قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة » .

(٢) الشورى : ٥١ . (٣) الأعراف : ١٤٣ (٤) النساء : ١٦٤

لتلقيه وحفظه وفهمه ، وقد يكون هذا الصوت حفيف أجنحة الملائكة المشار إليه فى الحديث : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كالسلسلة على صفوان » (١) ، وقد يكون صوت المَلَك نفسه فى أول سماع الرسول له .

والحالة الثانية : أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه فى صورة بشر ، وهذه الحالة أخف من سابقتها ، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع ، ويأنس رسول النبوَّة عند سماعه من رسول الوحى ، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان .

والهيئة التى يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها أن يتجرد من روحانيته ، ولا يعنى أن ذاته انقلبت رجلاً ، بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أُنسًا للرسول البشرى ، ولا شك أن الحالة الأولى - حالة الصلصلة - لا يوجد فيها هذا الإيناس ، وهى تحتاج إلى سمو روحى من رسول الله يتناسب مع روحانية المَلَك فكانت أشد الحالتين عليه ، لأنها كما قال ابن خلدون : « انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالمَلَكية الروحانية ، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال المَلَك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية » .

وكلتا الحالتين مذكور فيما رُوِىَ عن عائشة أُم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث ابن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله . . كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحيانًا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىَّ ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانًا يتمثل لى المَلَك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول » .

وروت عائشة رضى الله عنها ما كان يصيب رسول الله ﷺ من شدة فقالت : «ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » (٢) .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى .

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلَهى المشار إليه فى الآية :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ

١ - إِلا وَحْيًا

٢ - أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ .

٣ - أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِى حَكِيمٌ ﴾ (١) . .

أما النفث فى الرَّوع - أى القلب - فقد ذُكِرَ فى قول الرسول ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » (٢) ، والحديث لا يدل على أنه حالة مستقلة ، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين فى حديث عائشة ، فيأتيه المَلَك فى مثل الصلصلة وينفث فى روعه ، أو يتمثل له رجلاً وينفث فى روعه ، وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم .

* * *

شُبَه الجاحدين على الوحى

وقد حرص الجاهليون قديماً وحديثاً على إثارة الشُبَه فى الوحى عتوًا واستكبارًا ، وهى شُبَه واهية مردودة :

١ - زعموا أن القرآن الكريم من عند محمد ﷺ ، ابتكر معانيه ، وصاغ أُسلوبه، وليس وحيًا يُوحَى .

وهذا زعم باطل ، فإنه عليه الصلاة والسلام إذا كان يُدعى لنفسه الزعامة ويتحدى الناس بالمعجزات لتأييد زعامته فلا مصلحة له فى أن ينسب ما يتحدى به الناس إلى غيره ، وكان فى استطاعته أن ينسب القرآن لنفسه ، ويكون ذلك كافيًا لرفعة شأنه ، والتسليم بزعامته ، ما دام العرب جميعاً على فصاحتهم قد عجزوا عن معارضته ، بل ربما كان هذا أدعى للتسليم المطلق بزعامته لأنه واحد منهم أتى بما لم يستطيعوه .

ولا يقال إنه أراد بنسبة القرآن إلى الوحى الإلهى أن يجعل لكلامه حرمة تفوق

---

(١) الشورى : ٥١

(٢) رواه أبو نعيم فى « الحلية » بسند صحيح .

كلامه حتى يستعين بهذا على استجابة الناس لطاعته وإنفاذ أوامره ، فإنه صدر عنه كلام نسبه لنفسه فيما يسمى بالحديث النبوى ولم ينقص ذلك من لزوم طاعته شيئاً ، ولو كان الأمر كما يتوهمون لجعل كل أقواله من كلام الله تعالى .

وهذا الادعاء يفترض فى رسول الله أنه كان من أولئك الزعماء الذين يعبرون الطريق فى الوصول إلى غايتهم على قنطرة من الكذب والتمويه ، وهو افتراض يأباه الواقع التاريخى فى سيرته عليه الصلاة والسلام ، وما اشتهر به من صدق وأمانة شهد له بهما أعداؤه قبل أصدقائه .

لقد اتهم المنافقون زوجه عائشة بحديث الإفك ، وهى أحب زوجاته إليه ، واتهامها يمس كرامته وشرفه ، وأبطأ الوحى ، وتحرّج الرسول ﷺ وتحرّج صحابته معه حتى بلغت القلوب الحناجر ، وبذل جهده فى التحرى والاستشارة ، ومضى شهر بأكمله ، ولم يزد على أنه قال لها آخر الأمر : « أما إنه بلغنى كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله » [1] ، وظل هكذا إلى أن نزل الوحى ببراءتها ، فماذا كان يمنعه لو أن القرآن كلامه من أن يقول كلامًا يقطع به ألسنة المتخرصين ، ويحمى عرضه ؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [2] . .

واستأذن جماعة فى التخلف عن غزوة تبوك وأبدوا أعذارًا ، وكان منهم مَن انتحل هذه الأعذار من المنافقين وأذن لهم ، فنزل القرآن الكريم معاتبًا له لخطأ رأيه : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ ، لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [3] . ولو كان هذا العتاب صادرًا عن وجدانه تعبيرًا عن ندمه حين تبين له فساد رأيه لما أعلنه عن نفسه بهذا التعنيف الشديد والعتاب القاسى .

ونظير هذا معاتبته ﷺ فى قبول الفداء من أسرى بدر : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ

---

(١) راجع حديث الإفك فى « الصحيحين » وفى غيرهما ، وتفسير القصة فى سورة النور .

(٢) الحاقة : ٤٤ - ٤٧ (٣) التوبة : ٤٣

لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١) . ومعاتبته فى توليه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى رضى الله عنه اهتمامًا بنفر من أكابر قريش فى دعوتهم إلى الإسلام ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلا إِنَّها تَذْكِرَةٌ ﴾ (٢) . .

والمعهود فى سيرته ﷺ أنه كان منذ نعومة أظفاره مثلاً فريدًا فى حسن الخُلُق ، وكريم السجايا ، وصدق اللَّهجة ، وإخلاص القول والعمل ، وقد شهد له بهذا قومه عندما دعاهم فى مطلع الدعوة وقال لهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بظهر هذا الوادى تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِىَّ ؟ قالوا : نعم ، ما جرَّبنا عليك كذبًا » (٣) . وكانت سيرته العطرة مهوى أفئدة الناس إليه للدخول فى الإسلام ، عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه قال : « لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة ، انجفل الناس إليه ، وقيل : قَدِمَ رسول الله ، قَدِمَ رسولَ الله ، فجئتُ فى الناس لأنظر إليه فلما استثبت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب » (٤) .

وصاحب هذه الصفات العظيمة التى يُتَوِّجها الصدق ما ينبغى لأحد أن يمترى فى قوله حينما أعلن نفسه بأنه ليس واضع ذلك الكتاب ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِى ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَىَّ ﴾ (٥) .

٢ - وزعم الجاهليون قديماً وحديثًا ، أنه عليه الصلاة والسلام كان له من حدة الذكاء ، ونفاذ البصيرة ، وقوة الفراسة ، وشدة الفطنة ، وصفاء النفس ، وصدق التأمل ، ما يجعله يدرك مقاييس الخير والشر ، والحق والباطل ، بالإلهام ، ويتعرف

---

(١) الأنفال : ٦٧ - ٦٨
(٢) عبس : ١ - ١١
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) رواه الترمذى بسند صحيح .
(٥) يونس : ١٥

على خفايا الأمور بالكشف والوحى النفسى ، ولا يخرج القرآن عن أن يكون أثرًا للاستنباط العقلى ، والإدراك الوجدانى عبَّر عنه محمد بأسلوبه وبيانه .

وأى شىء فى القرآن يعتمد على الذكاء والاستنباط والشعور ؟

فالجانب الإخبارى - وهو قسم كبير من القرآن - لا يمارى عاقل فى أنه لا يعتمد إلا على التلقى والتعلم .

لقد ذكر القرآن أنباء مَن سبق من الأُمم والجماعات والأنبياء والأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة كما يذكر شاهد العيان مع طول الزمن الذى يضرب فى أغوار التاريخ إلى نشأة الكون الأولى بما لا يدع مجالاً لإعمال الفكر ودقة الفراسة ، ولم يعاصر محمد ﷺ تلك الأمم وهذه الأحاديث فى قرونها المختلفة حتى يشهد وقائعها وينقل أنباءها ، كما لم يتوارث كتبها ليدرس دقائقها ويروى أخبارها : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ ، وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (١) .. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ (٢) .. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِه لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾ (٣) .. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ (٤) .

ومنها أنباء دقيقة تتناول الأرقام الحسابية التى لا يعلمها إلا الدارس البصير ، ففى قصة نوح : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِه فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥) . وهذا موافق لما جاء فى سفر التكوين من التوراة ، وفى قصة أصحاب الكهف : ﴿وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُواْ تِسْعًا﴾ (٦) .. وهى عند أهل الكتاب ثلاثمائة سنة شمسية ، والسنون التسع هى فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية .

---

(١) القصص : ٤٤ - ٤٥ (٢) هود : ٤٩ (٣) يوسف : ٣

(٤) آل عمران : ٤٤ (٥) العنكبوت : ١٤ (٦) الكهف : ٢٥

فمن أين أتى محمد ﷺ بهذه الدقائق الصحيحة لو لم يكن يُوحَى إليه وهو الرجل الأُمى الذى عاش فى أمة أميّة لا تكتب ولا تحسب ؟

وقد كان أهل الجاهلية الأولى أذكى من ملاحدة الجاهلية المعاصرة ، فإن أُولئك لم يقولوا إن محمداً استقى هذه الأخبار من وحى نفسه كما يقول هؤلاء ، بل قالوا : إنه درسها وأُمليَت عليه ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (١) ، ولم يتلق رسول الله ﷺ درسًا على معلم قط - كما سيأتى - فمن أين جاءته هذه الأنباء فجأة بعد أن بلغ الأربعين ؟ ﴿ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾(٢) . .

هذا فى الجانب الإخبارى .

أما فى سائر العلوم التى تضمنها القرآن فإن قسم العقائد يتناول كذلك أموراً تفصيلية عن بدء الخلق ونهايته ، والحياة الآخرة وما فيها من الجنة ونعيمها ، والنار وعذابها ، وما يتبع ذلك من الملائكة وأوصافهم ووظائفهم - وهذه معلومات لا مجال فيها لذكاء العقل وقوة الفراسة البتة ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً ، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِيمَانًا ﴾ (٣) . . ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا القُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَّبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٤) .

ناهيك بما تضمنه القرآن من أحكام قاطعة عن أخبار المستقبل التى تجرى على سُنَن الله الاجتماعية ، فى القوة والضعف ، والصعود والهبوط ، والعزة والذلة ، والبناء والدمار : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (٥) ،

---

(١) الفرقان : ٥ (٢) النجم : ٤ (٣) المدثر : ٣١

(٤) يونس : ٣٧ . (٥) النور : ٥٥

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (١) . ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٢) . .

أضف إلى هذا أن القرآن الكريم قد حكى عن رسول الله اتباعه للوحى ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا ، قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَىَّ مِن رَّبِّى ﴾ (٣) ، وأنه بشر لا يعلم الغيب ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ (٤) ، ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِى السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (٥) . .

وقد كان عليه الصلاة والسلام عاجزًا عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين شاهدين أمامه ليقضى بينهما وهو يسمع أقوالهما فهو بلا شك أشد عجزًا عن إدراك ما فات وما هو آت : « سمع رسول الله ﷺ خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأحسب أنه صدق ، فأقضى له بذلك ، فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » (٦) .

قال الدكتور محمد عبد الله دراز : « هذا الرأى هو الذى يُروِّجه الملحدون اليوم باسم « الوحى النفسى » زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأى علمى جديد ، وما هو بجديد ، وإنما هو الرأى الجاهلى القديم ، لا يختلف عنه فى جملته ولا فى تفصيله ، فقد صوّروا النبى ﷺ رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذن شاعر، ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيرًا على حواسه حتى يُخَيَّل إليه أنه يرى

---

(١) الحج : ٤٠ - ٤١ (٢) الأنفال : ٥٣ (٣) الأعراف : ٢٠٣

(٤) الكهف : ١١٠ (٥) الأعراف : ١٨٨

(٦) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السُّنَن .

ويسمع شخصًا يكلمه ، وما ذاك الذى يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته فهو إذن الجنون أو أضغاث الأحلام ، على أنهم لم يطيقوا الثبات طويلاً على هذه التعليلات ، فقد اضطروا أن يهجروا كلمة « الوحى النفسى » حينما بدا لهم فى القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلة ، فقالوا : لعله تلقفها من أفواه العلماء فى أسفاره للتجارة ، فهو إذن قد علَّمه بشر ، فأى جديد ترى فى هذا كله ؟ أليس كله حديثًا معادًا يضاهون به قول جهَّال قريش ؟ وهكذا كان الإلحاد فى ثوبه الجديد صورة منتسخة ، بل ممسوخة منه فى أقدم أثوابه ، وكان غذاء هذه الأفكار المتحضرة فى العصر الحديث مستمدًا من فتات الموائد التى تركتها تلك القلوب المتحجرة فى عصور الجاهلية الأولى ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) .

وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله إنه كان صادقًا أمينًا ، وإنه كان معذورًا فى نسبة رؤاه إلى الوحى الإلَهى ، لأن أحلامه القوية صوَّرتها له وحيًا إلهيًا ، فما شهد إلا بما علم ، وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول : ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٢) . . فإن كان هذا عذره فى تصوير رؤاه وسماعه فما عذره فى دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأنباء ، لا هو ولا قومه من قبل هذا ، بينما هو قد سمعها - بزعمهم من قبل - فليقولوا إذن إنه افتراه ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل ، ولكنهم لا يريدون أن يقولون هذه الكلمة لأنهم يدَّعون الإنصاف والتعقل ، ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون » (٣) .

٣ - وزعم الجاهليون قديمًا وحديثًا أن محمدًا قد تلقى العلوم القرآنية على يد معلم .

وهذا حق ، إلا أن المُعَلِّم الذى تلقى عنه القرآن هو مَلَك الوحى ، أما أن يكون له مُعَلِّم آخر من قومه ، أو من غير قومه فلا .

إنه عليه الصلاة والسلام قد نشأ أميا وعاش أميا ، فى أمة أميَّة لم يُعرف فيها أحد يحمل وسام العلم والتعليم ، وهذا واقع يشهد به التاريخ ، ولا مرية فيه .

---

(١) البقرة : ١١٨ (٢) الأنعام : ٣٣ (٣) راجع : « النبأ العظيم » .

أما أن يكون له مُعَلِّم من غير قومه فإن الباحث لا يستطيع أن يقع فى التاريخ على كلمة واحدة تشهد بأنه لقى أحدًا من العلماء حدَّثه عن الدين قبل إعلان نبوَّته .

حقيقة إنه رأى فى طفولته بحيرى الراهب فى سوق بصرى بالشام ، ولقى فى مكة ورقة بن نوفل إثر مجيء الوحى ، ولقى بعد الهجرة علماء من اليهود والنصارى ، لكن المقطوع به أنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء شيئاً من الأحاديث قبل نبوَّته ، أما بعد النبوَّة ، فقد كانوا يسألونه مجادلين فيستفيدون منه ويأخذون عنه ، ولو كان رسول الله ﷺ أخذ شيئًا عن واحد منهم لما سكت التاريخ عنه ، لأنه ليس من الهنات الهينات التى يتغاضى عنها الناس ، لا سيما الذين يقفون للإسلام بالمرصاد ، والكلمات التى ذكرها التاريخ عن راهب الشام أو ورقة بن نوفل كانت بشارة بنبوَّته عليه الصلاة والسلام (١) أو اعترافًا بها (٢) .

ونقول لهؤلاء الذين يزعمون أن محمدًا كان يُعَلِّمه بَشر : ما اسم هذا المُعَلِّم ؟ وعندئذ نرى الجواب المتهافت المتداعى فى « حدّاد رومى » (٣) ينسبون إليه ذلك ، فكيف يُستساغ عقلاً أن تكون العلوم القرآنية صادرة من رجل لم تعرفه مكة عالماً متفرغًا لدراسة الكتب ، بل عرفته حدَّادًا منهمكًا فى مطرقته وسندانه ، عامى الفؤاد ، أعجمى اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة بالنسبة إلى العرب : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٤) . .

---

(١) قال بحيرى عندما رأى فى رسول الله سيما النبوَّة : « إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم» .

(٢) قال ورقة عندما سمع قصة النبى ﷺ من صفة الوحى وقد أخذته خديجة إليه يرجف فؤاده : « هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى ، ليتنى أكون حيا إذ يُخرجك قومك ، قال : أوَ مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت أحد قط بمثل ما جئتَ به إلا أُوذِىَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزرًا » .

(٣) كان غلامًا نصرانيا ، واختلف أهل السيرة فى اسمه فقيل اسمه : « سبيعة » . وقيل : « يعيش » ، وقيل : « بلعام » .

(٤) النحل : ١٠٣

ولقد كان العرب أحرص الناس على دفع هذا القرآن إمعانًا فى خصومة محمد ﷺ، ولكنهم عجزوا ووجدوا السبل أمامهم مغلقة ، وباءت كل محاولاتهم بالفشل، فما للملحدين اليوم - وقد مضى أربعة عشر قرنًا على ذلك - يبحثون فى قمامات التاريخ ملتمسين سبيلاً من تلك السبل الفاشلة نفسها ؟ !

وبهذا يتبين أن القرآن الكريم لا يوجد له مصدر إنسانى ، لا فى نفس صاحبه ، ولا عند أحد من البَشر ، فهو تنزيل الحكيم الحميد .

ونشأة رسول الله ﷺ فى بيئة أمية جاهلية ، وسيرته بين قومه ، من أقوى الدلائل على أن الله قد أعده لحمل رسالته ، وأوحى إليه بهذا القرآن هداية لأُمته : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ، أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ (١) . يقول الأستاذ محمد عبده فى رسالة التوحيد : « من السُّنَن المعروفة أن يتيمًا فقيرًا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ، لا سيما ، إن كان من ذوى قرابته ، وأهل عُصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أُستاذ ينبهه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جارى السُّنَن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم ، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده » (٢) .

ولكن الأمر لم يجر على سُنَنه ، بل بُغِّضَتْ إليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء فى الكتاب من قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ (٣) ، لا يُفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى

---

(١) الشورى : ٥٢ - ٥٣

(٢) كأمية بن أبى الصلت ، وزيد بن عمرو بن نفيل .

(٣) الضحى : ٧

التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخُلُق العظيم ، حاشى لله ، إن ذلك لهو الإفك المبين ، وإنما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما هُدوا إليه من إنقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين ، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته » .

* * *

● **متاهات المتكلمين :**

وقد خاض المتكلمون فى بيان كلام الله على نهج الفلاسفة فأوقعوا الناس فى متاهات أضلتهم عن سواء السبيل ، حيث قَسَّموا كلام الله تعالى إلى قسمين : نفسى قديم قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا ترتيب ولا لغة ، وكلام لفظى هو المنزَّل على الأنبياء عليهم السلام ، ومنه الكتب الأربعة ، وأغرق علماء الكلام فى خلافاتهم الكلامية المبتدعة : أيكون القرآن بهذا المعنى الثانى مخلوقاً أم لا ؟ ورجحوا أن يكون مخلوقًا ، وخرجوا بذلك عن منهج السَّلَف الصالح فيما لم يرد به كتاب ولا سُنَّة ، وتناولوا صفات الله بالتحليل الفلسفى الذى يؤدى إلى التشكيك فى عقيدة التوحيد .

ومذهب أهل السُّنَّة والجماعة إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء والصفات أو أثبته رسوله ﷺ فيما صح عنه ، وحسبك أن تؤمن بأن الكلام صفة من صفاته تعالى ، قال سبحانه : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (١) ، وأن القرآن الكريم - وهو الوحى المنزَّل على محمد ﷺ - كلام الله غير مخلوق ، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ (٢) ، وإثبات هذا ونحوه مما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله وإن كان يوصف به العباد فإنه لا ينافى كمال تنزيهه تعالى عما لا يليق به من نقائص عباده ، ولا يقتضى مماثلته لهم .

---

(١) النساء : ١٦٤ (٢) التوبة : ٦

إذ أن الاشتراك فى الأسماء لا يقتضى الاشتراك فى المسميات ، فشتَّان بين الخالق والمخلوق فى الذات والصفات والأفعال ، فذاته تعالى أكمل ، وصفاته أسمى ، وأفعاله أتم وأعلى ، وإذا كان الكلام صفة كمال للمخلوق فكيف ينتفى هذا عن الخالق ؟ ويسعنا ما وسع أصحاب رسول الله ﷺ وعلماء التابعين وأئمة الحديث والفقه فى العصور المشهود لها بالخير قبل ظهور بدعة المتكلمين من الإيمان بما جاء عن الله أو صح عن رسوله فى صفاته تعالى وأفعاله إثباتًا ونفيا من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ، وليس لنا أن نُحَكِّم رأينا فى كُنْه ذات الله أو كيفية صفاته: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

* * *

(١) الشورى : ١١